المسيحية ودورها في مواجهة الثقافة الرومانية في شمال أفريقيا

من القرن الأول إلى القرن الرابع الميلاديين

د. أبوبكر سرحان(*)

وصف المؤرخين حركة المسيحية خلال القرنين الأول والثاني بأنها تمثل صفحة بيضاء، في تاريخ التنصر، دلالة على كون هذا الدين الجديد ظل غامضًا يحيطه الصمت منذ ظهوره في فلسطين على لسان نبي الله عيسى عليه السلام وأنتشار الحوار بين أصحاب النبي الاثنى عشر في مختلف جهات العالم القديم ليبشروا بهذا الدين إلى حوالي ١٨٠م. التي حدث فيها إعدام مسيحيين.

كثرت الأراء حول طريقة انتقال المسيحية إلى شمال أفريقيا؛ ويؤيد العديد منها فكرة انتقالها على يد التجار الشرقيين الذين كانوا يتنقلون بين المراكز الحضارية والتجارية الساحلية، وأخذ عدد المسيحين يتزايد، وفي البداية اتخذت المسيحية من معابد اليهود في المدن الأفريقية مراكز لها تبلورت فيها حركة التنصر وانطلقت منها، ولكن معتنقي اليهودية في هذه المدن مالبثوا أن اختلفوا مع أتباع المسيح وناصبوهم العداء.

لم يعثر المؤرخون أو الأثريون على أدلة كتابية أو مادية تشير إلى تاريخ ما كان بداية ظهور حركة التنصر في شمال أفريقيا، وأشهر النصوص التاريخية التى ذكرت مبشري المسيح من الحواريين في أفريقيا عامة هو نص ابن خلدون الذي استند فيه إلى مؤرخيين مسيحيين لم يذكر أسماءهم وجاء في النص «وعند علماء النصارى أن الذي بعث من الحواريين إلى روما «بطرس» ومعه «بولس» من الأتباع ولم يكن حواريًا، وإلى السودان والحبشة؛ «متى العشار» و»أندراوس»، وإلى أرض بابل والشرق «توماس»، وإلى أرض أفريقيا «قيلّبس»، وإلى أفسوس

(*) مدرس التاريخ القديم - معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة ص ص ٩ - ٢٥.

قرية أصحاب الكهف «يوحنا»، وإلى أورشليم (بيت المقدس) «يوحنا»، وإلى أرض العرب والحجاز «برتلوماوس»، وإلى أرض برقة والبربر «يشمعون القناني[١].

فكما هو واضح بالنص أن شمال أفريقيا قد حل بها إثنان من الحواريين، هما «قيلّبس» الذي مزل بمنطقة البروقنصلية (أقليم قرطاجة)، و»يشمعون القناني» الذي نزل في ليبيا، غير أننا لا نعرف مصير هذين المبشرين، ولا نعلم مدى الأثر الذي احدثاه في أوساط السكان، وإن كان بعض مؤرخي النصرانية في أفريقيا ذهب إلى القول بأن هذين المبشرين تمكنا من استقطاب أتباع لهما قاموا بدورهم بنشر الدعوة فى أوساط سكان الريف[٢]، اعتمادًا على نص «ترتوليانوس» الذي ذكر فيه بعض من اعتنق المسيحية من قبائل الجيتول والمور خلال القرن الثاني الميلادي[٣]، بينما أتهم بعضهم «ترتوليانوس» بالمبالغة، وأن المسيحية انتشرت في غرب أفريقيا بسبب اليهود الشرقيين وأنها أنتشرت بصورة عفوية وليس على يد البعثات التبشيرية التي كانت ترسلها كنيسة روما مثلًا لنتصير الولايات الرومانية[٤].

يرى البعض أن المسيحية في عهد «ترتوليانوس» كانت على ثلاث مراحل: أولها؛ تركزت فى المدن الساحلية، والثانية؛ أنتقلت إلى المدن الداخلية، أما أثناء المرحلة الثالثة التي كان يعيش فيها «ترتوليانوس» تغلغلت في الداخل في الأرياف والبوادي[٥]، وهناك رأي آخر أن بذور المسيحية الأولى في أفريقيا غرست من طرف عناصر شرقية إلا أن تنظيم حركة التنصر قد تم على يد مبعوثين من كنيسة روما، وعلى ذلك فإن كنيسة روما كانت أمًا لكنيسة قرطاجة، وقرطاجة أمًا لباقي الكنائس التي أنتشرت جهتي الغرب والجنوب بعد ذلك[٦]، ولكننا نجهل متى أنشئت كنيسة قرطاجة، وأن أقدم أسقف معروف من أساقفتها هو «أغريبينوس» (Agripinus) الذي عاصر "ترتوليانوس" وكان قد دعا لأول اجتماع لأساقفة البروقنصلية ونوميديا وموريتانيا عام ٢٢٩م. من أجل التداول في قضية تعميد الورثة، وقد دل عدد المشاركين في ذلك الاجتماع على أن المراكز الأسقفية كانت منتشرة في ذلك الوقت[٧].

نفى «شارل أندري جوليان» ما ذهب إليه رجال الدين المسيحيين بقولهم أن الدعوة المسيحية في المغرب تعود إلى زمن المسيح، قائلًا بأنها محاولة اعتمد فيها أصحابها على تقواهم أكثر من اعتمادهم على روح التحري[٨].

خلاصة القول ان حركة التنصير قد انتشرت في شمال أفريقيا فترة الاحتلال الروماني بكيفية مجهولة الأساليب، إلا أنها من الواضح أنها حظيت بإقبال شديد من طرف أفراد الطبقة الاجتماعية الدنيا، وخاصة السكان الذين التمسوا في تعاليم المسيحية بغيتهم الروحية وطموحهم الاجتماعي، وهما أمران لم يكونا في الديانة الرومانية المفروضة عليهم، ولا في المعتقدات الهلينستية التي عجزت عن تحقيق الوئام الاجتماعي، بل كانت تلك المعتقدات الوثنية أو العقلية مجسدة للتمايز الاجتماعي مكرسة لنظام الطبقية والتفاضل بين بني الإنسان(٩).

أولًا- اعتناق السكان للمسيحية.

كان السبب في سرعة انتشار المسيحية بين سكان شمال أفريقيا كونها وجدت استعدادًا طيبًا لديهم؛ هو نتيجة انتشار الأفكار الفلسفية لدى الطبقة الأرستقراطية، والتي حاربت الدين الجديد ومعتنقوه من طبقات المجتمع الدنيا، وتدل هوية الأشخاص الذين تعرضوا للعقاب من طرف السلطة الرومانية جزاء على اعتناقهم المسيحية، فقد كان عدد الأشخاص الذين أعدموا ببلدة «ثابراكا» (Thabraca) (طبرقة الحالية بتونس) عام ٢٠٣م. كالتالي: امرأة تدعى "فيفيا بيربيتوا" (Vivia Perpetua) ورجلان فقيران وعبدان، وقد أتخذ المسيحيون من هؤلاء رمزًا للتضحية المثلى في سبيل المسيح، واعتبروهم طليعة شهداء العقيدة، ويلاحظ هنا أنه لو كان معتنقو المسيحية الأوائل من طبقة الأرستقراطيين لما ذرفوا دموعًا على هؤلاء الأشخاص، ولما أحاطوا أرواحهم بتلك الهالة من التقديس؛ لسبب بسيط وهو أن الضحايا كانوا من طبقة دنيا لا قيمة لها في نظر الطبقة الأرستقراطية(١٠).

كان من مبادئ العقيدة المسيحية ما يناقض نظرة الأغنياء لطبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ومفهوم الروابط الوظيفية بين الأفراد والجماعات من جهة وبين المجتمع والسلطة من جهة أخرى، فالنظرة الطبقية للبنية الاجتماعية والاقتصادية السائدة آنذاك، والتي كانت أساسًا متينًا للتفاضل الاقتصادي والاجتماعي وقاعدة صلبة لتواصل سيادة السلطة وسندًا قويًا لسلطان القانون الوثني قد رفضها

المجتمع الوليد، مجتمع النصارى القائم على مبادئ مغايرة تمام التغاير للنظرة السابقة المرتكزة على مبدأ التفاضلية الراسخة في المجتمعات القديمة(١١).

وصف «ترتوليانوس» جانبًا من طبيعة العلاقات الاجتماعية الاقتصادية التي ألزم بها النصارى أنفسهم تطبيقًا لتعاليم المسيحية ومبشؤيها الأوائل يقول»إن ما يؤاخي بيننا هو هذه الممتلكات التي تفرق فيكم الاخوة.. إننا موحدون ذهنيًا وروحيًا ولا نتردد في تقسيم ممتلكاتنا بيننا. إن كل شئ مشترك بيننا ما عدا أزواجنا»(١٢)، كيف ينتظر لدين ينزل الناس منزلة متساوية ويزيل الفوارق الاجتماعية بين معتنقيه ويدعوهم لإشراك غيرهم في ممتلكاتهم إن قبل على اعتناقه أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين يعيشون على ظاهرة التمايز الطبقي؟

أشار «ترتوليانوس» في الفقرة السابقة إلى طبيعة أعداء المسيحية ملمحًا إليهم بالتناحر على الأموال، وهذا لا يمنع أنه دخل بعد الأفراد الطبقة المتوسطة في الدين المسيحي والتي كان منها «ترتوليانوس» حيث ولد لعائلة عسكرية متوسطة الحال، ونلحظ أيضًا من نصه أن اضطهاد المسيحية كان من طرف الوثنية قبل أن يكون من السلطة الرومانية، فقد كان بعض الوثنيين يبادر بحرق المسيحيين دون انتظار المحاكمة، وهم عمل لم يكن يسمح به القانون، وكان بعض الوثنين يطالبون بالتخلص من المسيحيين بالزج بهم إلى الوحوش كي يتسلوا بمناظرهم الدامية في المدرجات قائلًا «والمسيحيون للأسود» (Christinos ad Léonem)، رافضًا دفن جثثهم في المقابر بقوله "ليس هناك مقابر" (areae son sint)(١٣) .

يتضح من هذا أن ضحايا الاضطهاد الوثني من المسيحيين كانوا من الطبقة الدنيا التي لا يحميها القانون ولا تحظى بسند اجتماعي، فقانون العقوبات الروماني كان يميز بين صنفين من الناس بناء على منزلتهم الاجتماعية؛ فهو يبيح الحكم بالإعدام رميًا إلى الوحوش على من يثبت ضدهم تهمة الإجرام من أفراد الطبقة الدنيا الوضعاء البسطاء (Homeliores)، ولا يتيح بهذا النوع من العقوبة ضد مرتكبي جرائم مماثلة من أفراد الطبقة الأرستقراطية (H.Honestiores)، وهذا ما يدلل بأن غالبية المتنصرين كانوا من الطبقة الدنيا الوضيعة في نظر الرومان(١٤).

وجدت الطبقة المحرومة في المسيحية ملاذًا للنفوس التي جرحتها الآلام وعصرها الشقاء وأنهكها الاحجاف والضيم الاستعماري، كان الدين الجديد محتوى فكريًا ونفسيًا لمقاومة صامتة سلمية جلدة، سلاحها قوة الروح وهدفها العدل وتحطيم المقومات المعنوية للمجتمع الوثني الأناني، هذا المجتمع الذي كان يجد في الطبقة المتنصرة فئة اجتماعية جديدة يهدد نموها كيانه لما تنشره من أفكار غريبة بدت في نظره هدامة، وقد لخص «ترتوليانوس» نظرة الطبقة الوثنية لطبقة المسيحيين بأنها كانت تنم عن توجس وارتياب شديدين إلى حد أن الوثنيين أصبحوا يرون المسيحيين وكأنهم «جنس ثالث مخيف» (Usque que tertium genus)، ويشير أن أفراد الطبقة الأرستقراطية يفضلون الاستماع إلى الفلاسفة ويرفضون التحدث مع المسيحيين، مما يدل على انصراف الطبقة المثقفة الأرستقراطية إلى الوثنية ومقتها للنصرانية لانها دين الفقراء والعبيد، يؤدي بمعتنقيه من الوجهاء إلى الهبوط إلى مستوى الحقراء الوضعاء(١٥).

بلغت ظاهرة الخصومة بين الوثنيين والمسيحيين في بداية الأمر حدًا من الخطورة استدعى تدخل السلطة الرومانية، والتي كانت إلى ذلك الحين متسامحةً نسبيًا إزاء المعتقدات المختلفة؛ ما لم يمس معتنقوها بالمصلحة العليا للإمبراطورية، وبالغ الوثنيين في إيذاء النصارى والوشي بهم، فأصدر الإمبراطور قرارًا يمنع تتبع المسيحيين وينص على معاقبة الواشين بهم طبقًا للقانون، ولكن في نفس الوقت ينص على معاقبة المصرحيين منهم بدينهم من معتنيقها إذا ثبت انهم مسيحيون، ولكن إن أعلن المتهم تخليه عن المسيحية برئ وتسقط عنه العقوبة(١٦).

كان لهذا القانون أثره على المتنصرين فالتزموا بالسرية واحاطوا دينهم بالكتمان متجنبين ما يثير السلطة الإمبراطورية نحوهم، ومارسوا نشاطهم باجتماعهم في أحد المنازل من أجل تدارس الأحداث اليومية المتعلقة بحركتهم وأخذ العبرة منها، والتواصي بقوة الإيمان والالتزام بالطاعة والنظام، كما كان الطعام المقدس الذي يتناولونه في أماكن التعبد أو عند قبور ضحايا الدعوة (الشهداء) وسيلة أخرى لتمتين الرابطة الروحية بينهم، حيث كانوا يقيمون الصلوات ويرددون الابتهالات ويسمعون المواعظ ويأخذون من الطعام والشراب حاجتهم(١٧).

هكذا يتضح لنا من خلال العرض السابق عوامل انتشار المسيحية رغم ما كان يعترض سبيلها من عقبات، ويمكن حصر هذه العوامل في الوضعية الاقتصادية والاجتماعية السيئة التي كانت ضحيتها الطبقة الدنيا من جهة والفراغ الروحي الذي حاولت الإمبراطورية ملأه بعبادة الإمبراطور عبثًا من جهة ثانية، ثم في المحتوى الإنساني الذي تضمنته العقيدة الجديدة مثلًا في مبادئ الأخوة الإنسانية والعدل ومواساة الأشقياء المحرومين والتضامن مع ضحايا القهر والتسلط، وهي مبادئ ترجمها دعاة المسيحية في سلوكهم اليومي وفي علاقتهم ببعضهم وبالآخرين؛ فوجدت تلك المبادئ أثرها العميق في نفوس المقهورين وضحايا تلك الأوضاع فاستجابوا لها طواعية علها تقودهم نحو الخلاص المنشود، كذلك وجد المحرومون في المسيحية بديلًا لمشاكلهم المادية المتمثلة في التآخى في الله والتضامن الإنساني والتآذر الاجتماعي، وهي أسس أخلاقية من شأنها تقوية إيمان الفرد بنفسه وتعزيز أواصره بالآخرين ممن هم في مستواه، كما وجدت تلك الطبقة المقهورة في تعاليم المسيحية محتوى فكري عبرت به عن موقفها من المؤسسة المدنية القائمة على القوة العسكرية والتمايز الطبقي[١٨].

ثانيًا- موقف الرومان من ظاهرة التنصر واضطهاد المسيحيين.

ظلت جماعة النصارى بأفريقيا بمنجى من اضطهاد السلطة الرومانية حتى عام ١٨٠م. رغم أن اضطهاد المسيحيين في روما بدأ منذ عهد الإمبراطور «نيرون» (Neron) (٥٤-٦٨م.)، الذي اتهم المسيحيين بتدبير عملية إضرام النيران في روما عام ٦٤م.، وسن قانونًا يحظر اعتناق المسيحية أو التبشير لها علانية، وهو قانون تم تعديله تدريجيًا من قبل "تراجانوس"(Trajanus) (٩٨-١١٧م.) و"هادريانوس" (Hadrianus) (١١٧-١٣٨م.) و"ماركوس أوريليوس" (Marcus Aurelius) (١٦١-١٦٩م.) فأصبح يمنع محاكمة الموشي بهم من النصارى ويعفى من العقوبة من يعلن أمام المحكمة تخليه عن المسيحية، كما ذكرنا سابقًا، ولعل هذا التعديل في قانون "نيرون" جاء استجابة من الإمبراطور "ماركوس أوريليوس" لحالة من العدل في المحاكم التي تسبب فيها كثرة الوشاة بالنصارى، وكان ممن أثاروا الحقد ضد النصارى وأضروا بهم اليهود بناء على شهادة "ترتوليانوس"[١٩].

الواضح أن إمساك السلطة عن تتبع حركة التنصر السرية وعدم معاقبتها للمبشرين قبل عام ١٨٠م. يرجع إلى حيادية الحركة وسلوك أفرادها يقيم حجة قانونية تدينهم، لقد كان النصارى مسالمين محايدين إزاء القضايا القائمة والقلاقل المنتشرة في وجه الإمبراطورية، فلم يعلنوا عن موقفهم مما يدور حولهم من صراعات على السلطة أو بين روما ورعاياها من الشعوب الخاضعة، ولعل هذا السلوك الحيادي طمأن السلطة من ناحيتهم، ومارس النصارى في أفريقيا شعائرهم دون خوف أو تستر طيلة القرن الثاني الميلادي تقريبًا[٢٠].

تمكن مسيحوا ولايات أفريقيا من تنظيم نشاطهم الديني حيث اسسوا الكنائس السرية ونظموا اجهزتها؛ بحيث اصبحت تضم أساقفة وكهانًا وشماسة، وهي الرتب الثلاثة المعروفة في سلم الوظائف الكنسية[٢١]، غير أنه في عهد الإمبراطور «كومودوس» (Commodus) (١٨٠-١٩٢م.)، تغير الوضع وحل عهد المواجهة والصراع الدامي بين السلطة والمسيحيين، وكانت محاكمة عام ١٨٠م. التي تم فيها الحكم بالإعدام على إثنى عشر مسيحيًا بمدينة "ثابراكا" كما ذكرنا من قبل بداية الاضطهاد، كما اعتبرها المسيحيون رمزًا خالدًا لقوة نضالهم من أجل عقيدتهم[٢٢].

تلي تلك الحادثة عمليات قمع واسعة ضد من يعلنون تنصرهم رغبة في لاالاستشهاد، ومن ذلك ما حدث في عهد الإمبراطور «سبتيموس سيفيروس» (Septimius Severus)(١٩٢-٢١١م.) الذي يعتبره المسيحيون من أكبر جلاديهم بعد "دقلديانوس" (Degldeanus) (٢٨٤-٣٠٥م.)، غير أنه بعد «سبتيموس سيفيروس» طرأ على الوضع شئ من الإنفراج وأمكن للمسيحيين أن يمارسوا حياتهم الدينية دون خشية بفضل سياسة التسامح التي انتهجها خلفاء «سيفيروس» إلى عهد الإمبراطور «جالينيوس» (Galeinus) (٢٥١-٢٥٣م.)، ولكن ما لبث أن رجع الاضطهاد مرة أخرى فقد تعرض اسقف قرطاجة "كبيريانوس" (Cyprianus) آنذاك لأذي كبير انتهى بحياته حيث ضرب عنقه في بداية خريف عام ٢٥٨م. [٢٣].

كان من أثر شدة الاضطهاد المسلط على المتنصرين أن اضطر الكثير منهم إلى الارتداد عن دينه وإعلان تعلقه بالديانة الرسمية إلى درجة أن العديد من الموقوفين

منهم كانوا لا ينتظرون الاستنطاق من قبل القضاة ويصرحون بتنكرهم للمسيحية، بل إن بعض المسيحيين كما ذكر كبريانوس كانوا يفعلون ذلك في الساحات العمومية قبل أن يتم ايقافهم وهو ما أثار مسألة المرتدين وكيفية معاملتهم من قبل الكنيسة، فهل تقبل توبتهم ويدخلون المسيحية من جديد إن رغبوا؟ وما هي درجة الذنب الذي ارتكبوه بإعلان كفرهم بالمسيحية؟ وكيف يكفرون عنه؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تطارحها الأساقفة في ولايات الإمبراطورية الرومانية، وكانت سببًا في الاختلافات بين الطرفين[٢٤].

لكن الإمبراطور «كاروسيوس» (Carousus) (٢٨٢-٢٨٤م.) رفع السيف عن رقاب المسيحيين، وتمكنت المسيحية أن تنعم بفترة سلم دامت أربعين عامًا تمكن خلالها المسيحيون من تضميد جراحهم وإعادة تنظيم نشاطهم وتعميق عقيدتهم في نفوس الناس، وحاولت الإدارة الرومانية من استيعاب حركة التنصر والاستفادة من امكانياتها حيث أعفت المتنصرين من عبادة الإمبراطور واستغلت كفاءتهم، وهو ما شكل بادرة أولى لامتصاص العناصر المؤثرة ماديًا في حركة التنصر تمهيدًا للتحالف معها فيما بعد[٢٥].

رأت روما أن انتشار المسيحية في أوساط الطبقة الأرستقراطية من شأنه يوثر على رجحان كفة الميزان لصلح المسيحية إذا ما أتبعت سياسة الاضطهاد السابقة، ونظرًا لأهمية هذه الطبقة في تسيير شؤون روما؛ عاملت المتنصرين من أفرادها معاملة خاصة تمثلت في غض الطرف عنهم والتسامح معهم حفاظًا على مصلحة روما العليا المرتبطة بهذه الطبقة[٢٦].

لعل أباطرة عصر الفوضى العسكرية مضطرين لمهادنة المسيحية نظرًا لانشغالهم بالتطاحن فيما بيعهم للفوز بالجلوس على كرسي الإمبراطورية الذي كثر المتزاحمون عليه في تلك الفترة من تاريخ الإمبراطورية، غير أنه لما استجمع «دقلديانوس» زمام الإمبراطورية في يده وتأكد أنها لن تفلت منه، حيث استطاع التحكم في القوة المحركة للأحداث فيها، ورأى «دقلديانوس» أن أخطر تلك القوى المثيرة للقلاقل هي المعتقدات الأجنبية عن الديانة الرومانية، ومن بينها المسيحية

التي تطورت نظرة معتنقيها في أفريقيا إلى السلطة، ونزعوا نحو التمرد، وأعلن أن الإنحراف عن عبادة الإمبراطورية معناه التباهي بعدم الإخلاص لروما وعصيان الإمبراطور، ورأى أنه لابد من معاقبة الأشرار الذين يدعون إلى التخلي عند دين أجدادنا وتعويضه بدين جديد، ولا يمكن أن نسمح بانتشار ديانة مقيتة تفسد علينا عبادة أسلافنا وتعارض أفكارنا الدينية(٢٧).

أمر «دقلديانوس» بتصفية الجيش والإدارة من معتنقي المسيحية ومعاقبة الممتنعين عن تقديم الأضحية للآلهة الرومانية وعلى رأسها عبادة الإمبراطور، وأصدر أربعة مراسيم هامة تتعلق بموقف روما من المسيحية خلال عامي ٣٠٣، ٣٠٤م. وتضمنت منع الاجتماعات والتجمعات المسيحية وهدم الكنائس ومصادرة أملاك النصارى وحرق كتبهم المقدسة وإرغامهم على تقديم الأضحية في أعياد الإمبراطور، كما أمر بإلحاق عقوبات متفاوتة الشدة تصل إلى الإعدام حرقًا ضد المحالفين لأوامر الإمبراطورية(٢٨).

هناك أمران لابد أنه كان لهما دورًا هامًا في إعلان الإمبراطور «دقلديانوس» أحكام الاضطهاد: **أولهما**؛ إحساسه بضرورة توفير وحد دينية تعضد الوحدة الساسية التي بذل في سبيل ارجاعها للإمبراطورية جهودًا مضنية، وكانت تلك الوحدة الدينية تبدو للإمبراطور أمرًا عسير التحقيق إن بقي التسامح الديني معمولًا به في أرجاء الإمبراطورية، خاصة وأن المسيحية قد استفادت من سياسة التسامح السابقة واستفحل أمرها واصبحت قوة مؤثرة في رعايا الدولة عبر أنحاء الإمبراطورية، بحيث اصبحت إشارة من أساقفتها كافية لإثارة قلاقل تضع السلم والوحدة العسكرية في خطر(٢٩).

تصور «دقلديانوس» امكانية استيعاب المعتقدات المختلفة وتوحيدها في عبادة الإمبراطور الذي أصبح مؤلهًا؛ أي ان روح الإله قد حلت فيه، وأصبح سيد البشر ومولاهم (doninus noseer) وهذه الفكرة التي استند إليها "دقلديانوس" لم ترق للمسيحيين فرفضوها وأبوا أن يصدقوا أن روح الله الخالدة حلت في بشر، فكان ذلك مدعاة للتنكيل بهم(٣٠).

والأمر الثاني؛ يكمن في موقف النصرانية من ظاهرة العنف، فهي كدين تعاطف وأخوة ومسالمة صادقة[٣١]، طالبت معتنقيها بالامتناع عن استخدام العنف والتخلي عن الأسلحة لأنها تؤلم الآخرين، وهو ما دفع ببعض الجنود المعتنقين للمسيحية إلى عصيان أوامر قادتهم ورمي سلاحهم في وجوههم لاعتقادهم بأنه لا فائدة منه، واستمر التنكيل بالنصارى طيلة تلك الفترة(٣٢).

ثالثًا ـ اعتناق الرومان للمسيحية:

اعتنق الإمبراطور «قنسطنطينيوس الأول» (Cnstitenus I) (٣٢٣-٣٣٧م.)، بعد أن تخلص من خصومه السياسيين المنافسين له على عرش الإمبراطورية التي اعتلى عرشها عام ٣٢٤م. وكان من أقواله " ليمارس كل منكم العقيدة التي يفضلها"، ويذهب بعض المؤرخين أن الإمبراطور "قسطنطين" اعتنق المسيحية بهدف أغراض سياسية عجز عن تحقيقها بالوسائل العسكرية، ومما يؤكد ذلك أنه كان حريصًا على وحدة الكنيسة المسيحية كي تكون قوة جامعة لجماهير المسيحيين رعايا الإمبراطورية، الأمر الذي يمكن روما من السيطرة عليهم عن طريق هذه الكنيسة الموحدة التي يمكن تحويلها إلى جهاز أيدولوجي قوي التأثير يخدم مصالح الدولة العليا، وبناء عليه دعى قسطنطين جمع أساقفة ولايات أفريقيا لمؤتمر أول عام ٣١٤م. من أجل إدانة حركة المسيحيين المنشقين عن الكنيسة واتخذوا من ولايتي موريتانيا وولاية نوميديا مقرًا لدعوتهم، واجبارهم على العودة لسلطة الكنيسة الرسمية بقرطاجة[٣٣].

رأى المتمسكون بمادئ النصرانية أن تدخل الدولة وعلى رأسها الإمبراطور في أمور الكنيسة ضربًا من الاستيعاب وتدخلًا في شئون العقيدة المسيحية، وكان «دوناتوس» المنشق عن كنيسة قرطاجة ومؤسس «حركة الدوناتية» على رأس المعارضين لتلك التدخلات[٣٤].

من الأدلة الأخرى أن الوازع السياسي وليس الدينى هو الذي كان وراء تنصر الإمبراطور «قسطنطين»، هو ضغطه على المجمع الكنسي لأن يصدر قانونًا يحرم الجنود المسيحيين الذين يتخلون عن سلاحهم أو يحجمون عن القتال من المسيحية،

أي تعلن الكنيسة أن الجندي الذى يقترف ما سبق أنه كافر بالمسيحية، فهذا الإجراء الذي نفذ تلبية لرغبة الإمبراطور قد أفصح جيدًا عن الخطة السياسية المتبصرة الكامنة وراء تنصر الإمبراطور «قسطنطين»(٣٥).

منح قسطنطين الكنيسة التي تطبق الإجراء السابق امتيازات بأن اصبحت حليفة للدولة الرومانية ووهب رجال الكنيسة امتيازات لم يأخذها غيرهم، منها اعتراف الدولة بيوم الأحد كعطلة رسمية للمسيحيين، واعترافها بشرعية العتق الذي يتم داخل الكنائس على يد رجال الدين، ثم منح رجال الكنيسة حق ممارسة السلطة القضائية على أعضاء هيئة الكهنه من دون قاضي البلدة، وإعفاء رجال الدين من أعمال السخرة التي كانت مفروضة على الجميع، والسماح لهم بعضوية المجالس البلدية؛ وهي عضوية امتياز تسقط عنها الواجبات القسرية، التي كان جميع أعضاء المجالس الإدارية مطالبين بها، وكان لهذا الإجراء الأخير أثره الواضع في نفوس المجالس السابقين من الوثنيين حيث أخذوا يتسابقون لإعتناق المسيحية بعد أن كانوا محجمين عنها، وطلبوا بالدخول في الوظائف الكنسية بغية الاستفادة من الامتيازات المخولة لرجالها(٣٦).

هكذا كان تنصر الإمبراطور مشجعًا على انتشار المسيحية، حيث أن أفراد الطبقة الأرستقراطية اخذوا يقتدون بسيد العالم ويعلنون اعتناقهم المسيحية بعد أن كانوا يضطهدون النصارى من قبل، وربما صحت هنا مقولة «الناس على دين ملوكهم» وتقوى بذلك جانب الكنيسة اجتماعيًا بعد أن تعزز سياسيًا وأصبح الأغنياء يغدقون عليها من أموالهم تزلفًا لرجالها أو ابتغاء للغفران، فأخذ رصيدها الاقتصادي ينمو ويتعاظم شأنه، وبرز في ذلك رجال الدين مشكلين طبقة اجتماعية مرموقة(٣٧).

غير أن هذه الحظوة الكبرى التي غمرت الكنيسة تحت جناح الإمبراطور؛ أفقدتها قيمتها المعنوية لدى أفراد طبقات المجتمع الدنيا المحرومة، التي كانت وقودًا لنيران الاضطهاد الديني من قبل، حيث أن هذا التحول انحرف بالكنيسة تدريجيًا عن مبادئها النضالية في نظر تلك الطبقة المسحوقة من النصاري، وقطعها عن ماضيها المليئ بالتضحيات من أجل تعميق المبادئ المسيحية الأولى في نفوس المقهورين،

وبدأ هؤلاء في مناهضة الكنيسة التي تخلت في نظرهم عن المبادئ ويعارضوا سلوكها المتخاذل مع السلطة، ويندوا بمواقفها السياسية التي أتت برجال الدولة والأثرياء ممن كانوا يسومونهم العذاب بالأمس ليكونوا رجال دين عليهم(٣٨).

هكذا كان تنصر السلطة أو تحالفها مع الكنيسة عاملًا أساسيًا في تفاقم الخلافات بين المسيحيين الأفارقة إلى أن أصبح انشقاقًا في صورة حزبين دينيين: حزب موالى للدولة وعلى رأسه الكنيسة الرسمية؛ واتخذت من الكنيسة الرسمية بقرطاجة مقرًا لها، وحزب معارض لهيمنة السلطة على الدين وعلى رأسه الكنيسة الدوناتية والتي أتخذت من موريتانيا ونوميديا مقرًا لها(٣٩).

عكست ثورة الريفيين (الدوارين) خلال القرن الرابع مدى فشل جهود السلطة الرومانية في استيعاب الريفيين الأهالي ودخولهم تحت مظلة الحضارة الرومانية، فقد استهدف الثوار الريفيين الأثرياء المهيمنين على الموارد الاقتصادية والمسؤلين عن حالة البؤس التي كان يعاني منها الريفيون، فمثلت ثورتهم نوعًا من الحرب الشعبية الطبقية المجردة من أى انتماء لمكان او لعرق، فتضامنت مع العبيد وسعت لتخليص العالم الإنساني من حالة الرق التي فرضتها عليهم السلطة الرومانية(٤٠).

انضم الريفيون بثورتهم إلى الحركة الدوناتية واستطاعوا أن يلحقوا بالسلطة الرومانية والأثرياء والكاثوليك ضررًا ماديًا ومعنويًا، كان له أشد الأثر على تراجع السلطة الرومانية في ولايتي موريتانيا وتراجع هيبة القانون في أعين الناس، ولم تتمكن الإمبراطورية من خلال محاكمتها لمعتنقي الدوناتية والثوار الريفيين في مستهل القرن الخامس من استرجاع ما فقدته خلال قرن من المقاومة المادية والمعنوية، وهكذا هيأت صراعات القرن الرابع لإنسلاخ ولايات شمال أفريقيا ما عدا ولاية مصر من جسم الإمبراطورية الرومانية، هذا الإنسلاخ الذي تم بسهولة على يد الوندال عام ٤٢٩م. وفشل البيزنطيون فيما بعد في محاولة استردادهما مرة أخرى في حظيرة إمبراطوريتهم الشرقية لأن السكان المور كانوا قد استنشقوا عبير الحرية وألفو نعمة الاستقلال فى ظل الإمارات المستقلة التي تأسست على حطام الولايات الرومانية السابقة(٤١).

الخاتمة:

بينت الدراسة أن سرعة انتشار المسيحية بين السكان رغم ما كان يعترض سبيلها من عقبات، لسببين أولهما؛ سوء أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ والتي كان ضحيتها طبقة العامة المتمثلة في الأغلبية العظمى للسكان الأصليين، وثانيهما؛ الفراغ الروحي الذي حاولت الإمبراطورية ملأه بعبادة الإمبراطور عبثًا، ولعل المحتوى الإنساني الذي تضمنته العقيدة الجديدة مثلًا في مبادئ الأخوة الإنسانية والعدل ومواساة الأشقياء المحرومين والتضامن مع ضحايا القهر والتسلط، وهي مبادئ ترجمها دعاة المسيحية في سلوكهم اليومي وفي علاقتهم ببعضهم وبالآخرين؛ فوجدت تلك المبادئ أثرها العميق في نفوس المقهورين وضحايا تلك الأوضاع فاستجابوا لها طواعية علها تقودهم نحو الخلاص المنشود.

أوضحت الدراسة أنه رغم تعرض المسيحيين للاضطهاد من قبل الأباطرة الرومان، خاصة الإمبراطور «دقلديانوس»؛ لم يجعلهم يتنصلوا من الدين الجديد، وأن يبذلوا أرواحهم في سبيله، فوجد المحرومون في المسيحية بديلًا لمشاكلهم المادية المتمثلة في التآخى في الله والتضامن الإنساني والتآذر الاجتماعي، وهي أسس أخلاقية من شأنها تقوية إيمان الفرد بنفسه وتعزيز أواصره بالآخرين ممن هم في مستواه، كما وجدت تلك الطبقة المقهورة في تعاليم المسيحية محتوى فكري عبرت به عن موقفها من المؤسسة المدنية القائمة على القوة العسكرية والتمايز الطبقي.

بينت الدراسة أن تنصر الإمبراطور «قنسطنطينيوس الأول» والاعتراف بالمسيحية كدين من قبل الرومان؛ لم يكن من وازع ديني بل من التمسلك بمصلحة روما العليا، وألا ينهدم كيانها أما هذا الدين الذي كثر أنصاره، وترتب على ذلك أن فقدت الكنيسة قيمتها المعنوية خاصة عند أفراد طبقات المجتمع الدنيا المحرومة، التي كانت وقودًا لنيران الاضطهاد الديني من قبل، حيث أن هذا التحول انحرف بالكنيسة تدريجيًا عن مبادئها النضالية في نظر تلك الطبقة المسحوقة من النصاري، وقطعها عن ماضيها المليئ بالتضحيات من أجل تعميق المبادئ المسيحية الأولى

في نفوس المقهورين، ولكن تنصرهم لم يأت بنتائج مرجوة وبدأ هؤلاء في مناهضة الكنيسة التي تخلت في نظرهم عن المبادئ ومعارضة سلوكها المتخاذل مع السلطة الرومانية، ويندوا بمواقفها السياسية التي أتت برجال الدولة والأثرياء ممن كانوا يسومونهم العذاب بالأمس ليكونوا رجال دين عليهم، وأدى التدخل المباشر للرومان في الشئون الدينية إلى الانقسام بين المسيحيين وظهور المذاهب الدينية المختلفة.

هكذا لم تأتي جهود الرومان لفرض ثقافتهم المتعددة الوجوه على باقي عناصر السكان في موريتانيا بنتائج مرجوة، وبقيت ثقافة أصحاب الأرض الأصليون بمنأى عن تأثيراتهم، واستطاعت المسيحية رغم العثرات التي تعرضت لها والالتفاف على قساوستها لتطويعهم وفق المصالح الرومانية، من أن تحيي في السكان روح المقاومة والحفاظ على الهوية المحلية التي جاءت المسيحية لتدعمها وتحييها، ويسقط الاحتلال بكل مقوماته في نفوس الموريتانيون قبل غيرهم عام ٤٢٩.

هوامش البحث:

١. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٦م، ج٢، ص. ٢٩٤.

2. Carcopino,J.: Les traités de paixentre les RomainsetAllbeckoat, Melanges de l›Ecole Francaise de Rome,Paris,1943,78-80.

٣. إسحق عبيد: معرفة الماضي، دار المعارف، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٤٥- ٥٢.

٤. زاهر رياض: شمال أفريقيا في العصور الوسطي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١م، ص. ١٢٨

٥. نص قرار بلدية سلا والضروف المحيطة به، مجلة أمل، العدد ٢٧، الجزائر، ٢٠٠٢م، ص. ٤٣.

٦. شامو فرانسوا: تاريخ ليبيا القديم والإغريق في برقة الأسطورة والتاريخ، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٠م، ص. ٢١١- ٢٢١.

7. Gsell,S.: Histoire Ancienne de L'Afrique du Nord.,T.VI,P.108-112,113.

٨. شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص. ٢٢٥.

٩. محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، مرجع سابق، ص. ٢٦٨.

١٠. محمد الصغير غانم: من تاريخنا القديم، مجلة التراث، جمعية التاريخ والتراث الأثري بولاية باتنة، العدد الثاني، دار الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، ١٩٨٧م،ص. ٦٥- ٦١.

11. Wells,J., and Barrow,R.H.:Short History of the Roman Empire,London,1950, P.76.

12. Tertulianus: Apologitiques Texte etbli et traduit par, Waltzing Coll.J.P.,"Les Belles lettres",Paris,1929 , P.39,19,11.

13. Warmington, B.H.: The North African Provinces from Diocletian to the Vandal Conquest, Cambridge University press, London, 1954, P.431

١٤. محمد البشير شنيتي: حول الدوناتية وثورة الريفيين خلال القرن الرابع الميلادي، مجلة الأصالة، ع٦٠، ١٩٧٨م، ص. ٢٦.

15. Warmington, B.H.:The Carthaginian Period, Unesco general History of Africa, Vol. II, Ancient Civilizations of Africa, Editor, Mochtar, G. First published, Unesco, 1981312.

16. Vivien de St. Martin.: Le Nord de L'Afrique dans L'Antiquite Greque et Romain, Paris, 1963,P.65.

١٧. محمد حسين فنطر: الحرف والصورة في عالم قرطاج، مركز النشر الجامعي، تونس، ١٩٩٩م، ص. ٢١١.

18. Tertulianus: Op.Cit., P.39,19,9.

١٩. محمد الحاج صادق: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق, بلجيكا, ١٩٨٣م، ص. ٩٧.

٢٠. كولين ماكيفيدي: أطلس التاريخ الأفريقي, ترجمة مختار السويفي, الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٨٧م، ص. ٢٠- ٤٢.

21. Constans,L.A.: Gightis, Etude d›Histoire et d›Archeologie sur un Emporium de la petite Syrte, Extr. Des Nouvelles Archives des Missions scientifiques,Paris, 1916,P.65- 72.

22. Cicero: De Lege Agraria, Translated by: Freese, J.H.,(L.C.L.), London,1956,V.XXII.

٢٣. أنور الجندي: التراث والتراب المغربي, مجلة الأقلام, العدد الأول, بغداد,١٩٦٤م، ص. ٥٤- ٥٦.

24. Warmington, B.H.: Histoire et civilization de carthage, Paris,1961,P.217.

25. Vaufroy,R.: la Prehistoire de L›Afrique, I, Le Maghreb, Paris, 1955,P.65.

26. Tissot.Ch.: Geographie Comportee de la Province Romain d›Afrique, Paris,1956, P.21-26.

27. Marcy,G.: Les inscriptions libyqus bilingues de l›Afrique du Nord, Chiers de la Societe asiatique,fasc(C.I.L.)T.V.Paris,1936,P.231-241.

٢٨. جاء في الإنجيل: «اصبوا اعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، وصلوا لآجل الذين يسيؤون إليكم، من ضربك على خدك أعرض له الآخر أيضًا»

٢٩. سليمان مطر: قصة الديانة، دار الوطن العربي للطباعة، ب. د.، ص. ٣٨٢.

30. Grenier,A.: Comptes rendus de L›Académie des inscriptions, Paris, 1947,P .65.

31. Basset,R.: Selections from The Koran, The Christian Literature Society for India, London And Madras, 1896.97.

٣٢. محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية. المرجع السابق، ص. ٣٢١.

33. Laronde,A.: Cyrène et La Libye Hellénistique, Libykai Historiai, études d›antiquités Africaines, éditions du CNRS, Paris,1997,P.213.

٣٤. محمد البشير شنيتي: حول الدوناتية وثورة الريفيين، ص. ٤٥.

35. Malhomme,J.: Corpus des gravuees rupestres du grand Atlas, Iere Intérêtpublicationseffetsmarocaine, Maroc,1959,p.21-221.

36. Merlin,A.: Inscripitions latines de Tunis,Paris,1944,p. 64.

37. Sznycer,S.:Le Probleme des Suffetes,Rome et la Conquete du Monde Mediterraneen,2/ Genese d'un Empire,London,1873,p.231.

٣٨. محمد البشير شنيتي: حول الدوناتية وثورة الريفيين، ص. ٤٥.

39. Tertulianus: Op.Cit., P.39.

40. Ibid., P.41.

٤١. محمد البشير شنيتي: حول الدوناتية وثورة الريفيين، ص. ٤٥.

٤٢. المرجع نفسه، ص. ٤٧.

43. Gsell,S.: Op.Cit.,T.VI,P.118- 120.